فيها ، فإذا غاب عنه من الوجع عقله تركها فى مكانها ، فلما دخلا عليه ألفياه يقرأ فى صحيفة فى يده . فجلسا ساعة يؤنسانه فما شعرا إلا ضجّة تدنو حتى حسباها قد استقرت فى الفندق ، فنظرا من الشباك فإذا الرحبة والطرق التى تؤدى إليها ما فيها موطئ قدم خلا من إنسان . فاضطرب الرجل ونزل يسأل أن ماذا جرى ؟ فما أحسّ إلا الناس يقولون : لقد أتى ... هو فى الطريق ... فأيقن أنه الخليفة ، ولكنه رأى موكب الخليفة غير مرة فما رأى مثل اليوم ... ودنا من شيخ واقف فى أطراف الناس فسأله من القادم ، وأين يذهب ؟

فقال : إنه أبو عبد الله الذى لا يمشى إلى الخليفة ، قادم ليعود مريضاً فى هذا الفندق . فصاح الفندق :

— أبو عبد الله قادم إلى فندق ، أبو عبد الله ؟ وطفق يصيح ويثب لا يدرى ما ذا يصنع وماذا يقول ، وما يحفله أحد لأن الناس يتشوفون إلى الطريق ينظرون ، وقد احتشدوا فيها فما بقى بزاز فى دكانه ، ولا تاجر فى سوقه ، ولا طالب علم فى حلقته ، ولهم دوىّ وجلبة ...

وصحا الفندق على نفسه ، فإذا هذا البحر ينشق بقدرة الله ، وإذا الخلق يسكتون حتى كأن على رؤوسهم الطير ، ويبدو الإمام ومن حوله طلبة العلم قد احتشدوا من جهات بغداد كلها . بغداد العظيمة التى يسكنها مليونان وبأيديهم قراطيسهم وأقلامهم يكتبون كل كلمة يقولها فانتهى الإمام إلى الغرفة ، فوقف على المريض فقال له :

— يا أبا عبدالرحمن ! أبشر بثواب الله ، أعلاك الله إلى العافية ، ومسح عنك بيمينه الشافية

فتناقل القوم ما قال فكتبوه

* * *

ومرّت أعوام بعد ذلك وأعوام ، والناس يذكرون هذا اليوم المشهود . أما الفندق فقد منذ تلك الزيارة محط رجال العلماء والكبراء ، ودرت على صاحبه أخلاف الرزق ، وأما بقىّ فقد شفاه الله وعاد إلى الأندلس فملأها علماً ...

على الطنطاوى

ســـــارا كينوس

SARACENUS

للأستاذ محمد عبد الله العمودى

جاء فى العدد ٣٢٤ من هذه الرسالة العاليـة ، كلمة بعنوان « يا رسول الله » ، (لأستاذ جليل) ينم عليه قلمه !

استهلها بآية من آياته ، وبينة من بيناته ، وتلك قوله :

« إن الدهر قد جار على قوم عرب ! ! »

ثم نقل من (التنبيه والإشراف) للمسعودى هذه النبذة :

« كانت ملوك الروم تكتب على كتبها من فلان ملك النصرانية ، فغير ذلك نقفور ، وكتب (ملك الروم) وقال هذا كذب ، ليس (أنا) ملك النصرانية ، أنا ملك الروم ، والملوك لا تكذب ، وأنكر على الروم تسميتهم العرب (ساراقينوس) تفسير ذلك : عبيد سارة ، طعناً منهم على هاجر وابنها إسماعيل ، وقال : تسميتهم عبيد سارة كذب . والروم إلى هذا الوقت (يعنى سنة ٣٤٥) تسمى العرب (سارقينوس ...) اهـ

وأستاذنا الجليل ، وهو « سباق غايات ، وصاحب بينات » كان حقاً عليه أن يقف لحظة أمام هذه (الكلمة) فيعالجها معالجة يردها إلى أصلها ، أو يتول قولاً فى فصلها ؛ إذ هذا مجّيراد وديدنه فى كل ما يرقمه قلمه البارع فى شتى « مجاناته » ...! ولكنه لم يفعل بل تركها تجرى فى عبارة المسعودى غامضة الوضع ، عسيرة الفهم ، ملحقةً بذلك التفسير الذى يغلب على الظن أن المسعودى فسره تفسيراً خياليًّا بقوله : « عبيد ساره » أخذاً من الهجاء الأول « سارا » من كلمة : « ساراقينوس » ، والدليل على بطلان هذا الكلام عن المسعودى ، وإن كنا لا نستبعد أن لوجود « سارا » أو « سارّه » فى بنية هذه (الكلمة) من أمر ، قوله : « وقال « أى نقفور» تسميتهم عبيد ساره كذب » لأن ملكاً من ملوك هذه المصقّرة لا يمكن بحال من الأحوال أن يجمل من نفسه مدافعاً عن العرب ، أو يعنى بمثل هذا التعليل وغاية ما فى الأمر أن لخيال المسعودى أثراً فى هذا ، فمن وجود « سارة » فى هذه الكلمة يتبادر إلى ذهن « المؤرخ » الأسطورة الخرافية

الداهية التى « تحطّ » من قدر الاسماعيليين أبناء هاجر بالنسبة « لسارة » الزوجة الشرعية لإبراهيم الخليل . . . وهذا ما وقع فيه المسعودى ، فلا يُسلَّم له بهذا ، إلا إذا جاء نصٌ من اللاتينية أو الإغريقية يقول إن « كينوس » بمعنى « عبد » حينئذ يمكننا أن نركن البنادق مسلّمين !

وسيرى الأستاذ الجليل ، من الأقوال الآتية فى أصل هذه الكلمة وما قاله المؤرخون ، قدامى ومحدثون ، ما يجعله يقلّل من أهمية رواية المسعودى الذى إذا صح أنه لم يبتدعها من خياله ، فقد أمكن حينئذ أنه استقاها عن طريق . . . (اسرائيليات !) والنكتة فى هذا معلومة !

هذه الكلمة قد سجلها التاريخ فى مطاويه منذ عهد عريق جداً ، فالعرب لا تعرفها مطلقاً ، إذ لم تشتهر فى تاريخهم ، وما وردت فى نظمهم ولا نثرهم . فإذا كان المسعودى هو المؤرخ الوحيد الذى ذكرها ، فلا شك أنها هبطت عليه عرضاً ، واقتنصها اقتناصاً من أحاديث الروم . ومعنى هذا أنها غير مشهورة بين العرب ، ولا جارية على ألسنتهم فهم يجهلونها كل الجهل جهلهم بأصلها !

وهى سارية فى كل اللغات الأوربية بهذا المفهوم اللهم إلا فى الهجاء الثانى منها فإنه يختلف اختلافاً بسيطاً بحسب اختلاف اللُّغى واللهجات ...

أما التوصل إلى حقيقتها والتعرف على كُنه تحدرها فى مجرى التاريخ فهذا لا يكون إلا بالوقوف على ما كتبه مؤرخو أمتى البحر المتوسط : الإغريق والرومان ؛ فلهاتين الأمتين صلات وثيقة وتجارة جارية . أجل ، عند هاتين الأمتين نشأت كلمة « سارا كينوس » ووردت فى تاريخهما معزّزة بهجماتهم المتوالية على حدود الممالك الإغريقية والرومية فى مصر وفلسطين وما وراء بلاد الأنباط . وكانت قوافل السبأيين من أقصى الجنوب تفيض موقرة بالأحمال ، معطّرة الأعطاف بالبهار والأطياب فتتسلمها أيدى هؤلاء «السرا كينوس» لتتوزع فى قصور أوربا ومعابدها عن طريق الأغارقة والرومان ...

وإذا كانت هذه الكلمة أصبحت اليوم علماً خاصاً يطلق على العرب ، فإن مفهومها قديماً كان على عكس ذلك ؛ فقد كانت تدور فى دائرة ضيقة من التعريف ، لا تطلق على الشعب العربي كله وإنما كانت خاصة بقبيل معيّن يسكن على شواطئ خليج العقبة فى الجزء الجنوبى لجزيرة سيناء يعرفه الإغريق بـ «سارا كينى»[1] Sarakini

وأقدم ذكر جاء لهذه الكلمة فى كتاب المؤرخ الإغريقى ديوسكوريدس Dioscurids of Anazarabos فى منتصف القرن الأول من ميلاد المسيح عند ما وصف صمغ « الفل » فقال : إنه ينبت من « شجرة سار كينية » .

وذكر المؤرخ الرومانى بلينوس الأكبر فى كتابه « التاريخ الطبيعى » ، وقد كان معاصراً للاغريقى السابق الذكر ، هؤلاء « السرا كين » ، فقال : « إنهم من جملة القبائل العربية الثاوية فى صميم الصحراء ، والتى تتاخم بلادهم بلاد الأنباط » .

وجاء على أثر هؤلاء المؤرخ بطليموس ، فى منتصف القرن الثانى للميلاد ، فذكر بلاد « السرا كين Sarakene » ، فقال : « إنها تقع فى بلاد العرب الحجرية Arabia Petrea وعين مكانها بقوله إنها تقع فى غرب الجبال السوداء التى تمتد ـ بناء على قوله ـ من خليج فاران[2] إلى أرض اليهودية ... »

ولم يكتف المؤلف بكلامه هذا ، بل عاد ونقض قوله ، فقال فى موضع آخر من مؤلفه: إن «السرا كين» شعب يقيم فى داخلية بلاد العرب السعيدة Arabia Feliza يقصد بذلك بلاد اليمن . وزاد على ذلك فقال : إن « السكينتس » Skenites وقوم عاد Oaditai يسكنون الهضاب المرتفعة ، وبالقرب منهم نحو الشمال والجنوب يوجد « السرا كينوس » والثموديون[3] !

وهذه الفقرة الأخيرة من بطليموس بعيدة عن أفهامنا كل البعد إذ لا يصدق مطلقاً أن توجد قرابة فى المسكن بين « السرا كينوس » و « العاديين » مثلاً ؛ فأولئك ـ كما علمنا ـ مساكنهم حوالى جزيرة سيناء ، وهؤلاء مثاويهم فى جبال حضرموت والمسافة بين البلدين طويلة لا تقاس !

ولعل بطليموس قاس هذا قياس استيطان لا قياس مساحة بالنسبة لجهله بأبعاد الجزيرة . وأما قوله إن « السرا كينوس » على مقربة من « قوم عاد » كما ذكرنا ، فى بلاد العرب السعيدة ،

(١) Enciclopedia Italiana, Art. Saraeino

(٢) خليج فاران ، هو خليج العقبة . وأرض فاران هي الصحراء خلف العقبة

(٣) Encyclopedia of Islam, Art. Saracens

بعد أن أقرهم فى بلاد العرب الحجرية ، فلا يبعد أنهم كانوا يفهمون كل ما هو خلف بلاد الأنباط من بلاد ، هو من بلاد العرب السعيدة ، إذ هم يتصورون أجواءها وراء هـذه الحدود ، والسراكينوس كانوا عند مايهاجمون هذه الممالك سرعان ما يختفون فى أجواف هذه الصحراء صوب اليمن ...

مع كل ما سبق ، إذا جئنا نتلمس هذه الكلمة فى الأسفار اليهودية والسريانية لم نعثر فيها على ما يشفى غلة الباحث الصادى . نعم ! إن الكنائس السريانية قد برّزت فى هذا المجال فحفظت لنا أسفاراً قديمة جداً تتعلق بأخبار الساميّين — وخاصة ما يتعلق بهم من ناحية العقيدة ، كما يتضح لنا هذا فى « كتاب الحميريين » الذى نقله من نص سريانى الأستاذ (إكسل موبرج) المدرس بجامعة لند Lund من أعمال السويد . أما « السراكينوس » فلم يرو لهم ذكر يذكر فى هذه الأسفار السريانية ، ما خلا رسالة وضعها برداسانيس السريانى فى بداية القرن الثالث للميلاد بعنوان Ketaba de namose d'ataivata ذكر فيها الطائيين Tayoye و « السراكينوس » Sarakoye بقوله : « إنهما قبيلتان تمثلان أهم القبائل العربية الرحالة »[1]

واستمر الحال على هذا فى تلك الأعصار الماضية والسراكينوس لا يُعرفون إلا فى تلك الطوائف الصغيرة التى تظهر أحياناً مغيرة من وراء الحدود النبطية ، حتى نهض العرب نهضتهم المشهورة ، حاملين الرسالة الإنسانية ، فبدت طلائع خيلهم من وراء التخوم الفلسطينية تتواكب شمالاً ويساراً على حفافى البحر المتوسط ؛ فاهتزت لها أرجاء المملكة الرومانية ، وارتعدت لها فرائص القياصرة ، وسرى أمر «السراكينوس» بين أمم البحر المتوسط مسير الشمس ، فأصبحت هذه الكلمة من هذا الحدث التاريخى العظيم قد أخذت لها معنى واسعاً عن ذى قبل ، فكانت سمة الشعب العربى كله

من هذا نرى أن الكلمة قد تقمصت شكلا آخر أو مشت متطورة إلى دور ثان ، وسنراها كذلك قد دخلت فى طور ثالث ؛ وذلك أن العرب عند ما اشتدت هجماتهم على ممالك الروم فى مصر والشام ، وذاع من أمرهم أنهم يحملون ديناً جديداً إلى العالم ، أقضّ هذا مضجع الكنيسة الشرقية فى عاصمة بيزنطية.

فأرسلت رسلها إلى الكنائس الغربيـة تنبئها بأمر المسلمين ، وأن شيئاً جديداً قد صار يهدد الكنائس ! !

ولما ودع هرقل سورية وداعه الأخير المشهور ، واكتسحت جحافل ابن العاص قفول الرومان فى مصر ، كان أمر « السرازينس » قد ملأ النفوس رعباً وممالك الفرنجة اضطراباً ، حتى أصبحت هذه الكلمة من مرادفات الهول والموت ؛ ومن ذلك الوقت عُرف المسلمون بـ «السرازين» وإن كانوا هم العرب فى حقيقة الأمر والواقع !

وبقى البيزنطيون على وجه أخص يطلقون هـذا الاسم على المسلمين إلى أواخر القرون الوسطى حتى سقوط الخلافة فى بغداد . يؤكد لنا هذا خبرُ ابن بطوطة عند مادخل القسطنطينية فحياه امبراطورها باسم « سراكينو » Sarakino أى مسلم

ولما استقر العرب فى أسبانيا كانت كل الأمم الأوربية قد سمت بـ « السرازين » وراحت هذه اللفظة متبلبلة فى آداب هذه الأمم ؛ فاستعملها الفرنسيون فى شعرهم الحماسى Epique باسم « السرازين » Sarrazin أى القدرة السمراء (كما يقولون !) يعنون بذلك عرب أسبانيا نظراً للونهم الصحراوى الأسمر !

ثم أخذت طريقها بعد ذلك إلى إيطاليا ، فتسللت إلى شعر القروسية الإيطاليـة باسم « ساراشينى » Saracini ، وفى أثناء الحروب الصليبية كان المسيحيون يطلقونها أيضاً على المسلمين أجمعين ، وقد ذكرها الشاعر الإيطالى (دانتى) فى (جحيمه) بقوله[1] : e non Con Saracin nè Con Judei

ومعلوم من التاريخ أن غزوات العرب قد وصلت إلى معابر جبال الألب ومنافذ سويسرة بعد أن استولوا على جزء عظيم من جنوب وشمال إيطاليا وفى استطاعتنا أن نقول إنه لا يوجد اليوم جزء من أجزاء العالم يردد أهله ذكر (السرازين) فى حكايات أقرب إلى أن تكون من عمل خيالات القصصيين المولعين بأخبار الحماسة ، كبلاد سويسرة فعلى جبال هذه البلاد بنى (السرازين) آطامهم وقلاعهم وحصونهم ، ومازالت حتى هذه الساعة محتفظة باسمهم ، وفى مهاوى هذه الشعاب البعيدة عن العالم تقوم كنائس وأديرة ما فتئ رهبانها يذكرون أخبار (السرازين) فى عبارات مزيجة بالخرافة والتاريخ !

(١) Eneyclopedia of Islam

(١) Dante, Inf. Canto, XXVII, 87 ومعنى الشطرة : وليس مع المسلمين ولا مع اليهود .. (فى كلام له ما قبله)

هذه قصة « السراكينوس » تتبعناها من منبعها إلى موقعها بحسب ما توفر لنا من البحث والزمن ، ويرى القارىء من هذا التفصيل السابق أن هذه الكلمة قد أصبح أمرها معروفاً من حين خروج العرب من جزيرتهم ، وأنها لا تطلق إلا عليهم ، ولكن المشكل المحيِّر هو :

من هم هؤلاء « السراكينوس » قديماً ؟

ومن أين اشتق هذا الاسم ؟

سؤالان لم يجزم بحقيقتهما حتى الآن ؛ فقد ذهب المؤرخون فى مأخذ هذا اللفظ مذاهب شتى ، كلها من قبيل الظنون والرجوم ، فظانها غامضة ، وأثرها مطموس ، وللمؤرخين أقوال فى هذه « اللفظة » نجملها فيما يلى :

١ — فى العصور القديمة كانت تطلق على قبيل بعينه كما بينا فيما مر ، ولكن فى العصور المتأخرة ذهب المؤرخون فيها مذاهب شتى ، فيرى بعضهم أنها :

٢ — تصحيف « شرقيين » العربية ، ويدللون على رأيهم هذا أن حرف « الشين » العربى لا يوجد فى الإغريقية ، ولا الرومانية[1]

٣ — « سراقين » أى « اللصوص » ، ويقصد بهم سكان الصحراء !

٤ — « سارا كين » أصلها « صحراء ساكن » أى سكان الصحراء !

وبعد فهذه أقوال المؤرخين فى هذه اللفظة المحيرة ، ففيها ضعف ، وفيها قوة ، وكلها — فى رأينا — لا تغنى من الحق شيئاً !

على أنه إذا صح لنا الاختيار من هذه الأقوال ، فأقوى الآراء منها القول بأنها تصحيف « شرقيين » فالكلمة إذن عربية أصيلة ، أطلقها الأنباط ، وهم عرب على القبائل التى تناوحهم من جهة الشرق . فسمع منهم الإغريق والرومان هذا اللفظ فأدخلوه إلى لغتهم بتلك الصورة ، وقد كانت لهم مستعمرات بهذه الأرجاء كما هو معروف . وكلمة « الشرق » و « الشرقيين » لها أصل فى لغتنا اليوم ؛ فالمصريون يطلقون على كل من يفد من جهة الشرق « شرقيين » وأهل الحجاز يسمون أهل نجد « شروقا » فليس بعجيب إذن أن يعيد التاريخ نفسه فى القرن العشرين !

ولكن مع كل هذا التعليل ، ففى النفس شىء من « سارة » فى « سارا ... كينوس » وأن هذا التركيب لا بد وأن يحمل توجيهاً آخر فى تحليل هذه اللفظة ، وخاصة إذا أخذنا بأقوال مؤرخى الكنيسة فى القرن الرابع أن « السارازين » انضموا إلى الاسماعيليين الذين كانوا يقيمون فى صحراء قادش فى مقاطعة فاران حيث ينهض جبل « حوريب » فى شرق البحر الأحمر . وفى النفس شىء — أيضاً — من هذا إذا علمنا أن « الهاجريين » أبناء هاجر ، قد اشتهروا فى الأدب اللاتينى فى القرون الوسطى كرادف « للسرازين » فهل لعلماء اللغات السامية ، والمبرزين فى الإغريقية واللاتينية ، كشيخنا العلامة الكرملى ، أن يقولوا كلمتهم فى هذا الشأن ، فيعيدوا الحق إلى نصابه ، والسيف إلى قرابه ؟ !

أما بعد هذا كله فإنى أختتم هذا البحث بمخترقة قالها أحد المؤرخين الأوربيين ، وذلك أن « السراكينوس » الفدائى لا تزال سلائلهم موجودة اليوم ممثلة فى قبيلة « السواركة » القبيلة البدوية الصغيرة التى تعيش إلى هذا اليوم على شواطئ البحر بين العريش وغزة

وحسبنا أن نقول إزاء هذا التحقيق أن هذه بلية من بلايا البحث توقعها المجانسة فى اللفظ ؛ وكم خدعت المجانسة مستشرقين فى الغرب وأئمة فى الإسلام . فالسواركة هؤلاء وجدوا فى عصر متأخر ، يرجعون فى نسبهم إلى سيدنا عكاشة الصحابى المشهور[1] وفوق كل ذى علم عليم

(القاهرة) محمد عبد الله العمروى

(١) راجع أخبارهم فى كتابى « تاريخ سيناء القديم » لتعوم شقير . و « تاريخ بئر السبع وقبائلها » لعارف العارف .

(١) Amarai, Storia dei Musulmani di Sicilia, vol. I, P. 187